



## مراتب القيم الأخلاقية في المجتمعات الإسلامية في العصر الوسيط

د. محمد عليلي

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة ابن خلدون تيارت

### الملخص :

يتناول المقال القيم الأخلاقية في المجتمعات الإسلامية في العصر الوسيط ، من حيث أنها تكون وتشكل أحد العناصر الأساسية والمهمة في دراسة التاريخ الاجتماعي في العصر الوسيط، والهدف من هذا البحث هو الوقوف على أهمية ومكانة الأخلاق في حياة المجتمع المسلم ومدى تأثيرها على الجوانب الاقتصادية والاجتماعية وحتى السياسية لهذه المجتمعات ، مع الإجابة على الاشكالية المطروحة في هذا المقال وهي هل وجود هذه القيم الأخلاقية في المجتمع المسلم في العصر الوسيط هو التزام الفرد بها كسلوك ثقافي مكتسب من تعاليم الإسلام أم أنها الزام من قبل الدولة التي ضبقت قواعد ومبادئ للحفاظ على الأخلاق والآداب العامة لتحقيق الأمن الأخلاقي المجتمع ؟

### Abstract :

This article deals with ethical values in Islamic societies in the middle ages, as they constitute one of the main and important elements in the study of social history in the middle ages.

The purpose of this research is to assess the importance and status of ethics in the life of the Muslim community, and its effect on the economic ,social and politic aspects .

The answer to the problem presented in this article is: Is the existence of these moral values in the muslim society in the middle ages a result of the individual's commitment to it as a cultural behavior acquired from the teachings of Islam? Or whether they are bound by a state that has seized rules and principles to preserve morals and public morals to achieve the moral security of society.



## مقدمة :

إنّ دراسة الأخلاق في المجتمعات الإسلامية من الجوانب الأساسية التي ينبغي للمؤرخ أن يتناولها بالبحث في التاريخ الاجتماعي في العصر الوسيط ، من حيث أثرها على العلاقات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية لهذه المجتمعات، ذلك لأن السلوك العام للأفراد وللمجتمع يتيح لنا تفسير التطور الحضاري للدول التي نشأت في هذه الفترة، فقد تعود المؤرخون على الاقتصار على الدراسات السياسية و الاقتصادية وحتى الاجتماعية دون الإحاطة بالعناصر المشكلة للمنظومة الاجتماعية السلوكية ، والتي كان يمارسها المجتمع في تعاملاته اليومية ، وحتى نقف على تفسير الأحداث التاريخية الوسيطة بشكل متكامل ، لابد من التعرض بالبحث والتحليل لسلوكيات المجتمع في هذا العصر، وهو ما ندعوه بالقيم الأخلاقية التي ميزت المجتمعات الإسلامية في العصر الوسيط؛ مشرقا ومغربا وهي المظهر الاجتماعي للحضارة العربية الإسلامية .

فهل القيم الأخلاقية التي طبعت السلوك العام للمجتمعات المسلمة في العصر الوسيط كانت ممارسة لسلوك أخلاقي نابع من الامتثال من هدي القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة الذين حثا المسلمين على التمسك بالأخلاق الفاضلة التي يتمايزون بها عن غيرهم من الشعوب والأمم ؟ أم أنها كانت مفروضة على المجتمع من قبل السلطة الحاكمة في إطار قواعد ضبطت بها الأخلاق والآداب العامة ؟ و ما هو أثر التمسك بالأخلاق الحميدة على المجتمعات المسلمة في العصر الوسيط ؟ ماهي الأبعاد الانسانية لهذه الأخلاق ؟

## 1. مفهوم الأخلاق والفضائل الأخلاقية :

أ- لغة: الأخلاق في اللغة جمع خُلُق بضم الخاء وضم اللام أو سكوتهما، فيقال خُلُقٌ أو خُلُقٌ، وهي الدين و الطبع والسجية والعادة ، وهي صورة الإنسان الباطنية ، كما جاء في لسان العرب لابن منظور<sup>1</sup> وتكون هذه الصورة محمودة أو مذمومة ، يقابلها في اللغات الأوروبية مثل الفرنسية كلمة morale، وفي اللغة الإنجليزية كلمة morals وهي مشتقة من الكلمة اللاتينية mores، أما في اللغة اليونانية تسمى ethos ، وهي تعني العادة أي السلوك الذي يصدر عن الإنسان بفعل العادة بأثر حسن أو سيئ ، وقد تداول الفرنسيون كلمة ethique والإنجليز كلمة ethics على أنها المصطلح العلمي للأخلاق<sup>2</sup>

ب - اصطلاحا: أما في اصطلاح العلماء فتعرف على أنّها ملكة تصدر بها الأفعال عن النفس بسهولة من غير تفكير أو تكلف من صاحبها<sup>3</sup> ، أو هي حال للنفس راسخة تصدر عنها الأفعال من خير ، أو شر من غير فكر أو روية<sup>4</sup> ، كأن يقال فلان كريم لأنّ طبعه أو خلقه الكرم ، وليس لأنّه تصنّع أو تكلف الكرم ، فالخلق هو صورة الإنسان الباطنة ، تمثل ما طبع عليه الإنسان من



صفات وسجايا ،فهي الحالة النفسية التي جبل عليها و يختلف عن الخلق أو الخلقة وهي صورة الإنسان الظاهرة<sup>5</sup>، أي شكلها الخارجي الفيزيولوجي .

والخلق قسمان أو نوعان: نوع يرتقي بصاحبه إلى درجة الكمال الإنساني وهو الفضيلة التي تميزها الصفات النفسية الحسنة كالصدق والإخلاص والحياء والوفاء بالعهد، وتأدية الأمانة والعدل ، وصلة الرحم والعفو عند المقدرة والتسامح والكرم ، والتعاون والتراحم بين الناس وهو ما يسعى التكافل الاجتماعي، وغيرها من الصفات التي ترتاح النفس ويألفها المجتمع .

هذه الطباع أو الخصال المحمودة وغيرها كلها قيم أخلاقية يترتب عنها استقامة الفرد والمجتمع، وتسمو بالأفراد والمجتمعات إلى المراتب العليا للإنسانية، لأنها مصدر الخيرية في الإنسان، وتحقق المنفعة للناس، وفي هذا السياق يعبر مارتن لوثر(توفي سنة 1546) عن حاجة المجتمع إلى الأخلاق الحسنة في عبارة جميلة بقوله: " ليست سعادة البلاد بوفرة إيرادها، ولا بقوة حصونها، ولا بجمال بنائها، وإنما سعادتها بعدد المهذبين من أبنائها ، وبعدد الرجال ذوي التربية والأخلاق فيها " <sup>6</sup>

أما النوع الثاني فهو الذي ينحدر بصاحبه إلى دركات الحيوانية، وهو الرذيلة التي تكشف عنها الصفات النفسية السيئة المقابلة بالضد للنوع الأول من الخلق كالكذب والغدر والرياء والغش والبخل والظلم، والبذاء <sup>7</sup>، وغيرها وما يتبعها من طباع مذمومة ، فهي عكس الصفات الحميدة، وهي مبعث الشر ويترتب عنه من مفاسد، وإذا كانت الأخلاق الفاضلة تحقق استقامة الفرد والمجتمع فإن الأخلاق السيئة تقود المجتمع إلى الاعوجاج والانحراف، لأن النفس مجبولة على اتباع الهوى، إلا إذا وجدت من يقومها ويصلحها بالتربية والوعظ، وقد يكون الزجر أحيانا وسيلة فعالة لتوجيه النفس نحو الخير، فمن ليس له من نفسه زاجر لا تردعه الزواجر <sup>8</sup> .

ومنتهى القول إن الأخلاق أو السجايا المحمودة تشكل في مجموعها قيما أخلاقية ، تُعرّف على أنها الوعي بضرورة فعل الخير تنزع بالإنسان إلى الارتفاع فوق مستوى الهيمية المجردة <sup>9</sup> ، وحينما يلتزم بها الفرد أو المجتمع وتصبح سلوكا عاما ندعوها حينذاك بالفضيلة الأخلاقية ، وهي الاستعداد الدائم لفعل الخير <sup>10</sup> .

## 2مكانة الأخلاق في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة:

من المسلم به أنّ القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة هما مصدران للشريعة الإسلامية ، وهي لا تعني فقط ما تعلق بالعبادات، بل تشمل ما يتصل بحياة المسلم من عبادات ومعاملات، والأخلاق الفاضلة أساس القيم الدينية كلها ، وما دعا الإسلام الناس كافة إلى المكارم الأخلاق وقيمها النبيلة، وهذه القيم نزلت بها آيات كثيرة كقول الله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ <sup>11</sup>



وقد زكى الله سبحانه وتعالى الرسول ﷺ حيث قال ﴿وَأِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾<sup>12</sup>، وهذه المكانة الأخلاقية العظيمة التي خص الله رسوله الكريم ورفعها بها فيها حث للمسلمين بالاعتداء به ، حيث قال ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾<sup>13</sup> ، ولما سئلت عائشة رضي الله عنها عن أخلاقه ، قالت: "كان خلقه القرآن"<sup>14</sup> ، وفي حديث لرسول الله ﷺ قال ( أحبكم إلي وأقربكم مني مجلسا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا، وأبغضكم إلي وأبعدكم مني مجلسا يوم القيامة أسوأكم أخلاقا)<sup>15</sup> ، وهذا يعني أنّ المعيار الأساسي في مكانة المسلم عند الرسول ﷺ وقربه منه هو مكارم الأخلاق .

وبلغ من عظم ومراتب الأخلاق في الإسلام أنّها ترفع المسلم المتمسك بها إلى درجات الزاهد المتعبد، فقد قال رسول الله ﷺ في موضع آخر: ( إنّ الرجل ليدرك بحسن خلقه درجات قائم الليل صائم النهار)<sup>16</sup> .

لكن ماهي العلاقة بين الأخلاق والأدب ؟

العلاقة بين الأخلاق والأدب هي أنّه إذا كانت الأخلاق هي الطبيعة أو الحالة النفسية التي جبل عليها الإنسان كالحياء أو الكرم ، كما ذكرنا سابقا ، فإنّ الأدب هو ترجمة عملية لقيمة أخلاقية ما، أي أنّ الأخلاق سلوك نظري والأدب سلوك عملي ، ويظهر في سلوك الفرد مع المجتمع، والأدب يعني الأخذ بمحاسن الأخلاق، فيقال الآداب العامة أي جملة من الأخلاق الحسنة التي يأخذ بها المجتمع، و تكون مشتركة بين أفرادها، فيتفقون على صيانتها والحفاظ عليها بوسائل مختلفة كالشرع والعرفو القانون، و حياة الفرد أو المجتمع المسلم كلها مرتبطة بالآداب أو الأخلاق الحسنة من مأكله ومشربه ومجلسه، وكل معاملاته مع الناس، يقول الماوردي في هذا الباب: "الأدب وسيلة إلى كل فضيلة وذريعة إلى كل شريعة"<sup>17</sup> .

والذي يجب التنويه به هو أنّ السنة النبوية بينت كل ما يجب أن يلتزم به المسلم من آداب حتى يستقيم سلوكه بما يتوافق مع الذوق الرفيع مع نفسه ومع الناس، وما روي عن الرسول صلى الله عليه وسلم فيه أحاديث كثيرة تهذب سلوك المجتمع وترفع الحرج عن الناس ، حتى في في أبسط ففي أدب الجلوس مثلا يروى عن الرسول ﷺ أنّه قال: ( من قام من مجلسه ثم رجع إليه فهو أحق به)<sup>18</sup> .

وحق زيارة المسلم للمسلم لها آدابها ، فهناك أوقات يكره فيها الزيارة وهي قبل الفجر وبعد صلاة الظهر وبعد صلاة العشاء ، امثالاً للآية الكريمة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهْرِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمُ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾<sup>19</sup> .



ومما سبق من آيات و أحاديث ندرك أنّ تمام عقيدة المسلم لا تكون إلاّ باستقامة أخلاقه كما يقول أحمد شلتوت وهو من شيوخ الأزهر المعاصرين: "إنّ العقيدة دون خلق شجرة لا ظل لها ولا ثمرة، وإنّ الخلق دون عقيدة ظل لشبح غير مستقر"<sup>20</sup>، فهناك ترابط وتكامل بين العقيدة والأخلاق، لأنّ العقيدة السليمة قاعدتها الأساسية هي الأخلاق فما فائدة عبادة يؤديها المسلم دون إخلاص؟!

هذه هي إذا المنظومة الأخلاقية التي أسسها الإسلام في المجتمع الإسلامي من أجل تكوين مجتمع نظيف أخلاقيا تصان فيه الحقوق المعنوية والمادية ، حيث يُلزم الفرد باحترامها ويتعهد بالتمسك بها، وفي ذلك احترام للآداب العامة التي تضبط السلوك العام للمجتمع المسلم، وأي خلل يطرأ عليها إنّما هو خلل يصيب المجتمع برمته ويشوه سمعته .

### 3. أبعاد القيم الأخلاقية في المجتمع الإسلامي في العصر الوسيط :

ماهي القيم الأخلاقية التي دعا إليها الإسلام والتي طبعت السيرورة التاريخية للمجتمع الإسلامي؟ لقد دعا الإسلام إلى كل خلق جميل تستقيم معه حياة الفرد والمجتمع ، و الحقيقة هي أنّ الأخلاق في الإسلام شيء عظيم، فهي الدين كله وهي الدنيا كلها على حد قول الشيخ محمد الغزالي رحمه الله<sup>21</sup> ، وهي ثابتة لا تتغير بتغير العصور أو تقدمها ، ولا بتغير أحوال الناس ، فليس لكل زمان أو مكان أخلاقه لأنّها مرتبطة بالأحكام الشرعية<sup>22</sup> ، ولذلك كان الصحابة والصلف الصالح أشد حرصا على التمسك بالفضائل الأخلاقية والافتداء بالمنهج النبوي الأخلاقي فقد كانوا يرون أنّ الأخلاق في حد ذاتها أمانة لأنّ الرسول ﷺ أوصى بحسن الخلق .

كان الصدق هو سيد الفضائل التي تخلقوا بها ، روي عن الإمام الحسن البصري أنّه قال مروءة الرجل صدق لسانه وقال أيضا: " إنّ لأهل الخير علامة يعرفون بها : صدق الحديث أداء الأمانة والوفاء بالعهد وقلة الفخر والخيلاء وصلة الرحم ، وحسن الخلق ، وسعة الحلم، وبث العلم ، وقلة مثافنة النساء"<sup>23</sup> .

والإخلاص الذي يترتب عنه الاتقان في العمل سواء كان عملا دنيويا أو عملا متعلقا بالعبادة، وأول مراتب الإخلاص هو إخلاص النية لله وللناس، والوفاء بالعهد والمواعيد، والالتزام بها من أعظم الفضائل، يؤكدها الله تعالى في الآية الكريمة ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُمْ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾<sup>24</sup> ، فالمسلم مطالب بالالتزام بما عاهد به حتى مع غير المسلمين ما لم يكن في ذلك إضرار بمصالح المسلمين.

والأمانة هي أم الفضائل ترتبط أشد الارتباط بالوفاء بالعهد، فهي قيمة أخلاقية مطلقة تشمل كل ما يمكن للفرد أن يتعامل معه ، فهي لا تعني أمانة الودائع فقط ، فالمسؤول أمين على ما استرعى عليه من إمارة أو وظيفة أو غيرها ، كذلك العالم أو المتعلم يجب أن يكون آمينا في نقل



المعلومة أو الرواية ، يتحرى عن صدقها وهذا ما يسمى الأمانة العلمية<sup>25</sup> ، لذلك نجد أن أكثر علماء المسلمين كانوا أمناء في نقل علومهم وخاصة الذين اشتغلوا في الحديث ، وقد استفاد منهم المؤرخون في هذا المجال ، وإذا كان مؤرخ كالطبري يصرح بأن ما كتبه من تاريخ هو كما انتهى إليه من أقوال الرواة ، فذلك التزام اخلاقي بالأمانة العلمية حيث يقول : فما يكن في كتابي هذا من خبر ذكرناه عن بعض الماضين مما يستنكره قارئه أو يستشعنه سامعه من أجل أنه لم يعرف له وجها في الصحة ولامعنى في الحقيقة فليعم أنه لم يؤت في ذلك من قبلنا وإنما أتى من قبل بعض ناقله إلينا ، أنا إنما أدينا ذلك على نحو ما ادي إلينا<sup>26</sup> ، لأن تبليغ العلم للمتعلم يجب أن يكون صحيحا ودقيقا كتابة أو مشافهة .

ومن الفضائل الأخلاقية التي تعزز الروابط الاجتماعية لأفراد المجتمع هي التكافل والتعاون بين الناس فيما يحقق مصالحهم الدينية والدنيوية ، والتراحم والتسامح والحلم الذي يتجلى في العفو والصفح، والحياء وهذه الصفة الأخيرة هيمن خصال الأنبياء والرسل والصالحين ، فالحياء تصان به الآداب العامة وهو أصل الأخلاق<sup>27</sup> ، فقد جاء على لسان أحد الشعراء في مدح الحياء :

حياءك فاحفظه عليك وإنما يدل على فعل الكريم حياؤه<sup>28</sup>

وأما العدل فله مراتب، فالعدل مع الله ، أي الإيمان بربوبيته و وحدانيته، وعدم الشرك به الذي يعد ظلما عظيما ، لقوله تعالى على لسان لقمان الحكيم وهو يعظ ابنه ﴿وَأَذَقْنَا لُقْمَانَ لَابِنِهِ وَهُوَ يَعْظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾<sup>29</sup> ، والعدل مع النفس، وكذلك العدل بين الناس الذي هو التزام أخلاقي تفرضه المسؤولية التي يتحملها الفرد، بل هو أساس استمرار الدولة وقوتها ، ومن استقرائنا للتطورات السياسية والاجتماعية للدول الإسلامية في العصر الوسط يتبين لنا أنه متى التزم الخلفاء والأمراء وعمالهم بالعدل كان في ذلك صيانة لحقوق الرعية وحفظا للدولة والملك ، فإذا ما حل الظلم والجور محل العدل ضاعت حقوق الرعية ، فضاع ملكهم.

ألم يضرب عمر بن الخطاب ؓ أروع الأمثلة في العدل؟ ، فقد كان يأمر أن يقتص المظلوم من الظالم في ملأ من الناس إن كان الاعتداء علنيا، وفي خلوة إن كان الاعتداء في خلوة<sup>30</sup> ، ولا يفرق في ذلك بين القوي والضعيف ولا بين الغني والفقير، ولا حتى بين المسلم وغير المسلم، لأن الحق لا يؤخذ بقراءة نسب أو بوجاهة سلطة أو بمكانة في مجتمع بل يؤخذ لذاته انصافا وعدلا، إذ يذكر عنها مسلمة ويهوديا اختصما إليه ، فأعطى الحق لليهودي حتى قال له اليهودي :والله لقد قضيت بالحق<sup>31</sup> ، وقد ترتب عن عدالة عمر بن الخطاب ؓ أن كل فرد من رعيته اطمأن على حقوقه.



وكثيرا من الخلفاء والأمراء كانت لهم بصمة في العدل والعناية بحقوق رعيّتهم ، فقد حدث أنّ امرأة دخلت على الخليفة العباسي المأمون شاكية ابنه العباس ، فطلب إلى وزيره أحمد بن أبي خالد أن يجلس ابنه مع المرأة مجلس الخصوم ، وكان أرفع صوتا من العباس ، فأمرها الوزير أن تخفض صوتها لأنها في حضرة أمير المؤمنين فما كان من المأمون إلا أن قال له دعها يا أحمد فإنّ الحق أنطقها والباطل أخرسه ، يعني ابنه ، ثم قضى بإنصافها<sup>32</sup> .

وحيث يتعلق الأمر بالكرم فإنّه كذلك كان خلقا رفيعا يعبر المجتمع من خلاله عن سخائه وجوده ، وقد ترتبط سمعة أي مجتمع بكرمه ، فكثيرا ما كانت تنعت المجتمعات بكرمها وجودها ، وقد قرن الرسول ﷺ إكرام الضيف بالإحسان إلى الجار ، فقال: (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحسن إلى جاره ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليسكت)<sup>33</sup> . ويعد الكرم كذلك من الأخلاق الفاضلة التي حيث يعبر المجتمع من خلاله عن سخائه ، يترجمه إكرام الضيف ،

رويت الكثير من المواقف التي تبين أن الناس مثلا في المغرب في عهد المرابطين بلغ بهم الجود حد التضحية بنفائس ممتلكاتهم من أجل إكرام الضيف ، إذ يذكر أنّ الرجل كان يضطر إلى بيع اثاث بيته أو أغراضه لإكرام ضيفه أو التصدق على الفقراء<sup>34</sup> .

إنّ الأخلاق المحمودة هي التي تجعل المجتمع يستقيم في كل أموره ، وهي أيضا قوام المجتمع الفاضل ، ومعيار العمل الصالح ، يمتاز ويتميز بها الأفراد كما المجتمعات ، وهي مؤشر على الذوق السليم للمجتمعات في كل جوانب الحياة ، ناهيك على أنها تحفظ بها الحقوق والواجبات ، ثم إنّها تجعل الفرد ينسجم في سلوكه وعلاقته مع مجتمعه .

غير أنّ التحرر من الأخلاق الفاضلة فيه مفسدة للفرد والمجتمع و للدولة من أساسها ، وحتى نكون موضوعيين في طرحنا التاريخي لهذا الموضوع ، فإن بعض الشرائح الاجتماعية في العصر الوسيط لم تكن ملتزمة بالقضية الأخلاقية التزاما تاما فقد انصرف البعض إلى اللهو والمجون والترّف ، أضف إلى ذلك التبذير والإسراف في الأطعمة إلى حد التخمة حيث كانت موائد الخلفاء والأمراء حافلة بمشّتى أنواع الأطعمة وكان يدعى إليها الشعراء<sup>35</sup> ومن مظاهر الترف والبذخ التي نجدها في العصر العباسي ما يوحي بأن بعض الخلفاء العباسيين وبتأثير من نفوذ وثقافة الفرس قد ساهموا من حيث لا يدرون إلى انصراف العامة إلى اللهو والمجون اقتداء بهم متنصلين عن جانب مهم من القيم الأخلاقية<sup>36</sup> وكان هذا السلوك يجد مقاومة من قبل الفقهاء وأهل العلم والورع

و أنظر إلى تبدل حال الأندلس لما استبد بها الأمراء فاستبدلوا العدل بالظلم ولم يراعوا حقوق رعيّتهم بل تحصنوا في قصورهم ، ونسي الناس ، إلا قليل منهم ، فضائل الأخلاق التي



حفظت للمسلمين عزهم في هذه الديار أمدا طويلا، فتفشى بين أهلها اللهو والمجون، نتيجة الترف ومراتب العيش الرغيد ، حتى صرع النصارى دولة المسلمين في الأندلس في ذات يوم من عام 1492هـ.

#### 4. دور الفقهاء في ترسيخ الفضيلة في المجتمع الإسلامي :

كان الفقهاء والعلماء طوال العصر الوسيط يمثلون الضمير الحي للمجتمعات المسلمة، من حيث أنهم يمثلون القدوة بما يتصفون به من مهابة وما يسجل لهم من مواقف سياسية أو دينية، وقد تعددت طرق هداية المجتمع نحو حسن الأخلاق ، وكان عملهم هذا يتم في الغالب في المساجد ، لأن المسجد في العصر الوسيط كان من أهم المؤسسات التعليمية والتوعوية في المجتمع ، فإلى جانب دور العبادة وهي وظيفته الأساسية ، فقد تعددت وظائفه منها نشر الأخلاق بين المسلمين وحثهم على التمسك بها من خلال ما كان يلقي فيه من دروس ومواعظ وخطب كلها تلتقي في هدف واحد وهي حمل المجتمع على التمسك بأخلاق الإسلام في إطار التعاون على الخير والتراحم وفق مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

وكما تعددت وظائف المسجد ، فقد تعددت مهام الإمام أو الفقيه ومسؤولياته الأخلاقية، منها التعليم ، والفتوى ، الارشاد و النصيحة ، وهذه المهمة الأخيرة مارسوها حتى مع الحكام والأمراء إذا ما رأوا فيهم انحرافا عن جادة الحق، خاصة أولئك الأمراء الذين كانوا يتخذون من مجالسهم مجالس للهو والغناء ، فكانوا ينكرون عليهم ذلك، ولا يخشون في الله لومة لائم، امثالاً لحديث روى عن تميم الداري أنّ الرسول صلى الله عليه وسلم قال: ( الدين النصيحة ثلاثا) فقال الصحابة: لمن يا رسول الله ، فقال: ( لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم )<sup>37</sup> ، وقد وضع الخلفاء الراشدون النصيحة مبدأ لحكمهم ، فلما بويع أبو بكر بن الصديق رضي الله عنه بالخلافة قام في الناس قائلاً " أما بعد أيها الناس فإني قد وليت عليكم ولست بخيركم فإن أحسنتم فأعينوني وأن أسأت فقوموني ، الصدق أمانة والكذب خيانة ... " <sup>38</sup> ، وكذلك كان حال عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فقد روي أنّ رجلا قام في حضرة عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقال له : اتق الله يا امير المؤمنين فرد عليه رجل : اتقول لأمير المؤمنين اتق الله ، فقال له عمر

رضي الله عن دعه فليقلها لي ، فلا خير فيكم إن لم تقولوها ولا خير فينا إن لم نسمعها منكم ، دعه فليقلها لي ، فنعم ما قال<sup>39</sup>

وقد كانت ملازمة الفقهاء والعلماء للأمراء ملازمة أخلاقية بالدرجة الأولى فلم يبخلوا عليهم بالنصح والتوجيه وإذا رأوا منهم مالا يستقيم مع مكانتهم السياسية سارعوا إلى تنبيههم في أدب



وتلطف ، فقد ذكرت المصادر التاريخية أنّ أبا حسان اليحصبي دخل ذات يوم على زيادة الله الأول وفي مجلسه النبذ، فسأله عن رأيه فيه بحضور القاضيين أسد بن الفرات ( توفي سنة 213هـ / 828م )، و أبي محرز ( توفي سنة 214هـ / 829م)، فقال: " أصلح الله الأمير كم دية العقل؟" ، فقال الأمير: "وماذا مما نحن فيه؟" ، قال جوابكم ينبئكم سؤالي " ، قال الأمير: " دية العقل ألف دينار " ، فردّ عليه: " أصلح الله الأمير يعمد الرجل إلى ما فيه ألف دينار فيبيعه بدكيكجة<sup>40</sup> تسوى نصف درهم؟" فقال الأمير: " يا أبا محمد إنه يذهب ويعود " فقال أبو حسان: " بعد ماذا أصلحك الله؟ بعد أن قاء على لحيتي ، وكشف سوءتة ، وسب هذا ، وقتل هذا وضرب هذا؟ " فرد عليه الأمير: " صدقت والله ، صدقت والله صدقت والله " <sup>41</sup> .

وتذكر الروايات التاريخية أيضا أنّ العز بن عبد السلام ( ت سنة 660هـ ) قد أنكر على السلطان نجم الدين أيوب ( 647.638هـ ) خروجه على الناس في يوم عيد بالزينة والناس من حوله بينما بعضهم في حانة يحتسون الخمر فصاح في فيه قائلا : يا أيوب ما حجتك عند الله إذا قال لك أما ألم أبوي لك ملك مصر ثم تبيع الخمر ، فرد الملك أيوب هل جرى هذا ، فقال نعم الحانة الفلانية تباع فيها الخمر وغيرها من المنكرات وأنت تتقلب في نعمة هذه المملكة ، فقال يا سيدي هذا أنا ما عملته هذا من زمان أبي فقال أنت من الذين يقولون (إنا وجدنا آباءنا على أمة) سورة الزخرف فأمر السلطان بإغلاق تلك الحانة<sup>42</sup> .

ولعل هذا الأمر هو الذي عزز مكانتهم ووجهتهم لدى العامة ، ومن ثم فرضوا احترامهم وتقديرهم من قبل الحكام ، حتى وإن تعرضوا لمضايقات هؤلاء الحكام وامتعضهم في بعض الأحيان نتيجة جرأتهم في معالجة أي خلل في المجتمع سواء كان أخلاقيا أو سياسيا .

##### 5. دور التربية والتعليم في تنشئة الأطفال على الأخلاق الفاضلة :

إن التربية تقود النفس البشرية إلى الفضيلة، وهي كمال في النفس وشوق النفس إلى كمالها شوق غريزي ، فالنفس لها قابلية فطرية للتربية<sup>43</sup> ، فإذا ما وجد الطفل البيئة المناسبة لتلقي الأخلاق الحسنة نشأ على الفضيلة وحب الخير والميل إليه في سلوكه فيكتسب بذلك حصانة أخلاقية تدعوه للانسجام مع قيم الخير في المجتمع بل ويساهم في صناعة هذه القيم، وعلى هذا الأساس كان تعليم الأطفال في المجتمعات الإسلامية ضرورة أخلاقية ، لأن سلامة أخلاق المجتمع تبدأ برعاية أخلاق الطفل .

انتشرت في العصر الأموي ظاهرة تعليم أطفال الخلفاء والأمراء وحتى العائلات الغنية في بيوتهم مقابل أجر شهري ، والمعلم الذي يستدعى لتدريس هؤلاء الأطفال يسمى المؤدب ، فهو يعلمهم القراءة والكتابة والقرآن الكريم والأدب ، وطبعا كان هؤلاء المؤدبون على درجة عالية من الورع وسمو الأخلاق ، وغزارة العلم<sup>44</sup> ، ومحل ثقة لمن يختارهم لهذه الوظيفة . وعلى هذا الأساس كان



هذا المعلم حريصا على تلقين هؤلاء الأطفال الأخلاق الحميدة والخصال النبيلة كما يحرص على تلقينهم المعارف ، وفي هذا السياق روي عن الخليفة عبد الملك بن مروان أنه قال لمؤدب أولاده : " عَلِّمِهِمُ الصِّدْقَ كَمَا تَعَلَّمَهُمُ الْقُرْآنَ " <sup>45</sup> .

6. دور السلطة السياسية في تحقيق "الأمن الاخلاقي" للمجتمع بواسطة الحسبة :

ما هو الإطار السياسي الذي كان يحفظ الاخلاق في المجتمع؟ أو كيف كانت تتدخل السلطة السياسية لتقويم الأخلاق في المجتمع ؟

كان حضور الدولة واضحا في معالجة المسألة الأخلاقية في المجتمع من خلال نظام الحسبة ، وهو يقوم على مبدأ الأمر بالعرف والنهي عن المنكر ، وهو شعار يحمل أفراد المجتمع على فعل الخير وهو المعروف وترك الشر ، وهو المنكر تصديقا للآية الكريمة ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ <sup>46</sup> ، وامثالاً لقول ﷺ ( من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان ) <sup>47</sup> ، ولما كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يشمل كل جوانب الحياة الفردية والاجتماعية ، فقد تم تفعيل هذا الشعار بواسطة الحسبة، فإتيا تنظم الحياة العامة للمجتمعات الإسلامية ما تعلق منها بالأسواق والمحافظة على الآداب العامة ، أي أنها تضع الحق في نصابه <sup>48</sup> ، فتتنظم الحقوق والواجبات حتى تتحقق الخيرية في المجتمع .

أ. الحسبة على الأسواق والحرف :

الحسبة خطة كانت متصلة بالقضاء، ثم فصلت عنه ، لاحقا وأصبحت مستقلة بذاتها يضطلع بها المحتسب وأعاون يساعده في آداب مهامه ، وهذه الخطة في أصلها وجوهرها اهتمت في الغالب بمراقبة الأسواق ووضعت بالأساس لهذا الغرض، لأن السوق يفصح ، في العادة، عن أصحاب الطبائع الحسنة وأصحاب الطبائع السيئة ، فيجتمع فيه الأمين والمخادع والصادق والكاذب والتزيه والغشاش ، والطيب والخبيث .

ودور المحتسب هو الكشف عن الغشاشين والمخادعين ومعاقبتهم ، يعرفه ابن خلدون، بأنه ذلك الذي يبحث عن المنكرات، ويعزر ويؤدب على قدرها ويحمل الناس على المصالح العامة في المدينة <sup>49</sup> ويجب أن يكون هو نفسه على قدر كبير من دماثة الأخلاق من لين الجانب و تأدب في الخطاب ، فيكون قدوة لحمل الناس على أوامره <sup>50</sup> ، والأولى أن يبادر من يضبطه بالغش أو نحو ذلك بالوعظ والنصيحة والرفق والتخويف <sup>51</sup> لعله يتوب عن زلته ، وإذا عاد إلى ما نهى عنه ينزل به العقاب الذي يستحقه ، وبذلك يردع كل من تسول له نفسه أن يغش في السلع أو المكاييل، أو يتداول نقودا مغشوشة أو يخلط سلعة فاسدة بأخرى.صالحه كالجزار الذي يخلط



لحما مهزولا بلحم سمين ويبيعه بوزن واحد وثمن واحد مختلطين<sup>52</sup> أو يعرض شاة أو بقرة سميئة للناس ثم يذبح غيرها<sup>53</sup>، وهذا تدليس وتحايل فيه ضرر مادي ومعنوي على المشتري، وفي هذه الحالة يتدخل المحتسب فيمنع ذلك ، ويلزم القصابين ، أي بائعي اللحم من التفريق بين لحم الضأن والماعز ليميز المشتري بينهما ، وفي الغالب يطلب منهم ترك ذنب الماعز معلقة على لحومها ويمنعهم كذلك ، من تعليق لحومهم بحيث تتجاوز حد حوانيتهم لئلا تلاصقها ثياب الناس المارين بمحلها فيتضررون منها<sup>54</sup> .

ومن ثبت عليه أنه تمادى في هذه المخالفات وغيرها بعد التحذير ، وربما التشهير به ، كان يعاقب بالنفي من السوق<sup>55</sup> جزاء على فعلته، وحتى يكون عبرة لغيره ممن قد تساوره نفسه بارتكاب نفس الجرم ، لأنّ هذه الأمور كلها تتصل اتصالا وثيقا بالأخلاق والآداب العامة فهي معاملة بين الناس في البيع والشراء ، والتاجر ينبغي عليه أن يتصف بالأخلاق الفاضلة كالأمانة والصدق والإخلاص ليأمنه الناس .

وعموما فإنّ المخالفات لأحكام السوق وآدابه تتعدد بتعدد واختلاف السلع والبضائع المعروضة فيه وتتبع خصوصيات كل حرفة أو مهنة ومن ثم فإن مراقبة كل حرفة أو مهنة من هذه المهن يخضع لخصوصيتها .

وكل مهنة من المهن كانت تضبط حسب خصوصيتها ، فيراعى فيها الصدق والإخلاص والإتقان والأمانة تحقيقا لمنافع الناس ومصالحهم لأن الغش أو الكذب في أي مهنة من شأنه أن يلحق أضرارا بالناس في أبدانهم، أو أنفسهم، ونضرب لذلك مثلا مهنة الطب التي تتصل مباشرة بحياة الناس فهي تتطلب شروطا لمزاومتها ، أهمها الكفاءة من حيث معرفة نوع المرض والدواء المناسب، لذلك يقوم المحتسب بمعاينة الأعدياء، كما يتعهد الأطباء بالحلف ألا يعطوا دواء ضارا لإسقاط الحمل للنساء مثلا، وأن يغضوا أبصارهم عند دخولهم على المحارم ، وإذا ما حدثت وفاة بسبب تقصير الطبيب تؤخذ ديته من منه ، وهذا ما يسمى في وقتنا الحاضر أخلاقيات الطب<sup>56</sup> ، وأن يكون مترفقا بالمريض وأكثر الضرر حينما يجلس للتطبيب دون أن يكمل أهليته<sup>57</sup>

وتجتمع في الطبيب خصال عديدة أهمها الأمانة فهو أمين على المحافظة على صحة البشر صابرا في أداء واجبه، والرحمة والرفق والابتسام والصدق والعفة هي شروط أخلاقية في ممارسة الطب ، اما اشراط العملي فهو الإجازة ، إذ لا يمكن الاقبال على هذه المهنة ما لم يأذن لصاحبها بمزاومتها من قبل كبير الأطباء ، و أول من اشترطها سنان بن ثابت في زمان الخليفة المقتدر ، وإذا تحلى الطبيب بهذه الاخلاق نال احترام الناس وتقديرهم<sup>58</sup> .



ومن الأمور التي كانت داخل ضمن الآداب العامة ، وكذلك ضمن اختصاصات المحتسب ما تعلق بالرفق بالحيوانات ، إذ أنّ الإسلام لم يغفل الحيوان فخص له حقوقا حفظتها السنة النبوية الشريفة ، من ذلك أنّ الرسول ﷺ خرج في حاجة ، فرأى بعيرا مناخا على باب المسجد من أول النهار ثم مر به آخر النهار فرأه في مكانه ، فسأل عن صاحبه ولم يجده فقال : (اتقوا الله في هذه الهائم ، المعجمة فاركبوها صالحا واكلوها صالحا) <sup>59</sup> ، ولذبح الشاه أو غيرها آداب أوصى بها النبي ، حيث قال : (من رحم ، ولو ذبيحة عصفور ، رحمه الله يوم القيامة) <sup>60</sup> ، وشدّد الرسول ﷺ كذلك على من يعبث بالحيوانات أو يعذبها فقد قال : (من قتل عصفورا عبثا عج إلى الله عزوجل يوم القيامة منه يقول يا رب إنّ فلانا قتلني عبثا ولم يقتلني منفعة <sup>61</sup>)

وإثقال الدواب بالأحمال يعد أيضا من الأمور التي ينهى عنها المحتسب ويزجر صاحبها وهذا يدخل في باب الرحمة بالحيوان والرفق به ، فقد يحمل الدابة كالحمار ما لا تطيق ، ويزيد فوق ذلك إرهاقها بسرعة المثني بالضرب والزجر الشديد <sup>62</sup> .

ففي باب الرحمة والرفق بالحيوان ، لا سيما تلك التي ينتفع منها الإنسان ، يروى أنّه بلغ بأبي الدرداء (توفي سنة 32هـ / 652م على الأرجح) <sup>63</sup> أنّه لما أشرف بعيره على الموت قال له وكأته يفهم كلامه " يا أيها البعير لا تخاصمني عند ربك فإني لم أكن أحملك فوق طاقتك" <sup>64</sup> .

ب. الحسبة على الآداب العامة:

وكان للطرقات آدابها وأخلاقها يحمل الناس على الالتزام بها وعدم مخالفتها ، ومن الأمور التي تلحق بصاحبها العقاب هي التلطف بالألفاظ القبيحة التي تخدش الحياء أو التعرض للنساء وعقوبة هذه الأخيرة كانت عشرين سوطا في زمن الخلفاء الراشدين <sup>65</sup> ، ومن الأخلاق الفاضلة التي حث الإسلام عليها هي إمطة ما يمكن أن يتسبب في الإضرار بالمارة ، فقد روي عن الرسول ﷺ قوله : (تبسمك في وجه أخيك لك صدقة وأمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر لك صدقة وإرشادك أخيك في أرض الضلال لك صدقة ، وإمطتك الحجر والشوك والعظم عن الطريق لك صدقة وإفراغك من دلوك في دلو أخيك لك صدقة) <sup>66</sup> ، لذلك كان الحرص شديدا على إبقاء الطرق والساحات نظيفة ، وإذا وجد فيها ما يلوثها من فضلات الحيوانات والدواب ، فعلى المجاورين منها كنسها ورميها ويؤخذ في ذلك الأقرب فالأقرب <sup>67</sup> ، والمهم في كل هذا ألا يوجد شيء في يؤدي إلى تضيق الطريق أو يضايق المارة ويؤذيهم .

ويجب التنبيه في هذا السياق إلى أنّ وظيفة الحسبة قد بلغت شأنا كبيرا في عهد الموحدين حيث كانت من أرفع المناصب في جهازها الإداري ، ذلك لأن دعوة المهدي بن تومرت نفسها تأسست على فكرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ففي طريق عودته إلى المغرب الأقصى وفي أثناء إقامته في



بجاية كان يجاهر بمقاومته للمنكرات التي يراها بلسانه وبيده ويحتسب ذلك من صالح أعماله<sup>68</sup> ، وكان هذا في نظره اصلاحا اجتماعيا، ولما مكن للموحدين من قيام دولتهم صار ذلك من أجل واجبات في صيانة الأخلاق والآداب العامة لأن أهم الأسس والمباني التي قام عليها الفكر الإصلاحى لابن تومرت هي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والوضوح أن الفكر المعتزلي قد ترك فيه هذا الأثر كأحد الثمار التي جناها في أثناء رحلته إلى المشرق .

ولما انتهى أمر هذه الدولة إلى الزوال وتأسست على أنقاضها الدولة الحفصية والدولة الزيانية والدولة المرينية، وساءت الأحوال السياسية للمغرب الإسلامي نتيجة الفتن والحروب بين هذه الدولات، انتشر الغش والتحايل ، فلما فسدت طوية المحتسب انصرف كبقية الموظفين في هذا العهد إلى الاهتمام بمصالحه الخاصة ، فكان يتغاضى عنتأديب الغشاشين في السلع نظير ما يتقدمون به إليه من رشاوي<sup>69</sup> .

#### 7. البعد الأخلاقي للتجارة في العصر الوسيط :

امتازت التجارة عند المسلمين في العصر الوسيط بكونها كانت من بين الأساليب التي انتشر بها الإسلام ، فإذا كان التاجر المسلم يكسب المال من خلال ما يبيعه من بضائع فإنه من جهة أخرى كان يكسب قلوب الناس بأخلاقه فيدعوهم بطريقة غير مباشرة إلى أخلاق الإسلام، فهي دعوة صامتة للإسلام، فالتاجر على هذا النحو كان يحمل بضاعتين ؛ بضعة مادية وهي السلع وكل ما يمكن بيعه وشراؤه ، وبضاعة معنوية وهي الأخلاق أي حسن المعاملة ، فقد فرض التاجر الذي كان يسافر ببضاعته إلى السودان الغربي احترامه على تلك القبائل الوثنية فكانت أمانته وصدقه ونزاهته في تعاملاته التجارية سببا في تحول الكثير من الوثنيين إلى الاسلام<sup>70</sup> ، حينما أعجبوا بسلوك التجار لا سيما الملوكة بهذه المناطق فقد كانوا أسرع من رعيتهم في اعتناق الإسلام عن طريق التجار ذلك أن التجار المسلمين حينما كانوا يحلون بهذه الديار كانوا يبادرون إلى عقد صداقة مع حكامها ليضمنوا سلامة تجارتهم وأمنهم ، ثم أن هؤلاء الملوكة كانوا يقتنون منهم ما يروق لهم من بضائع لا توجد في بلدانهم .

كما أن كتب التاريخ التي أرخت لانتشار الإسلام في جنوب شرق آسيا عللت هذا الانتشار بأخلاق التجار العرب المسلمين الذين اتصلوا بهذه المناطق في القرون الهجرية الأولى، فكانت أخلاقهم دعوة صامتة للإسلام بهذه الديار ، فقد كانت بإندونيسيا جالية عربية نالت احترام السلطات والسكان بهذا البلد نتيجة الأمانة والصدق واحترام نظم هذه البلاد ، ونفس الشيء يقال عن الصين ، فقد عرف الصينيون المسلمين بالصدق في المعاملة وسهولة الأخلاق ، فكانت النتيجة هي الانتشار الواسع للإسلام في جنوب شرق آسيا<sup>71</sup> ، وكانت سمعة المسلمين



التجارية طيبة في هذه الديار ، فكان التجار الصينيون يرددون مقولة " لا نريد أن يسمع في بلاد المسلمين أنهم يخسرون أموالهم في بلادنا"<sup>72</sup>

#### 8. الأسس الأخلاقية في علاقات المسلمين بغيرهم من الأمم :

إن الإطار الأخلاقي لعلاقة المسلمين بغيرهم من الأمم الأخرى تحددها الآية الكريمة في قوله تعالى ﴿لَا يَنْهَاكُمْ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾<sup>73</sup> ، وبخاصة أولئك الذين كانوا يعيشون ويتعايشون مع المسلمين في الدولة الإسلامية ، لا سيما أهل الكتاب منهم اليهود والنصارى ، لأن الفضائل أمر مطلق الوجوب في الإسلام ، فالصدق والوفاء والأمانة والعفو مثلا واجب مع المسلم ومع غير المسلم ، وقد أوصى الرسول الكريم ﷺ بأهل الذمة خيرا حتى قال: (ألا من ظلم معاهدا، أو انتقصه ، أو كلفه فوق طاقتة أو أخذ منه شيئا بغير طيب نفس فأنا حجيجه يوم القيامة)<sup>74</sup> .

وإذا كان الرسول ﷺ ، قد أوصى بالجار خيرا، فإنه لم يستثن الجار من أهل الذمة، بل جعله ثالث درجة في الاحسان ، ولقد رعى المسلمون ذلك ، إذ يذكر الونشريسي في إحدى نوازله أن مسلما كان له جار يهودي ، قد نشأ معهم منذ صغره ، وهو يعامله معاملة حسنة ، ويسأل عن حكم هذه المعاملة فيجيبه ، فيجيبه أن يؤدي حق الجورة في حدود ما أوصى الرسول ﷺ<sup>75</sup> .

ولا بد من الإشارة إلى جانب مهم جدا في علاقة المسلمين بغيرهم من الأمم في أثناء الحروب ، وهو أنهم راعوا الجوانب الإنسانية ، فجعلوا من الحرب حماية للإسلام والمسلمين لا اعتداء على الآخرين ، وهو ما سمي بأدب الحرب في الإسلام ، لذا دأب الخلفاء على أن يوصوا قادة الجيش بالتزام ضوابط وقواعد الشرع كلما خرجوا لحرب ، فقد أوصى أبو بكر الصديق ﷺ أسامة بن زيد في بعثته إلى الشام تأسيا برسول الله ﷺ بقوله: " لا تخونوا ولا تغلوا ، ولا تغدروا ، ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا طفلا صغيرا ولا شيخا كبيرا ، ولا امرأة ، ولا تعقروا نخلا ، ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا شاة ، ولا بقرة ، ولا بعيرا إلا لمأكلة ، وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له "<sup>76</sup>.

و احتفظ المؤرخون ، المسلمون منهم والغربيون المنصفون بصفحات من مظاهر التسامح الإسلامي التي بلغت أرقى درجات النبل والشهامة والكمال الإنساني لم يعرفها تاريخ الإنسانية من قبل إلا ما أتى به الأنبياء والرسل ، فموقف صلاح الدين الأيوبي مع ريتشارد قلب الأسد غني عن الذكر في أثناء اشتعال الحروب الصليبية ، حيث أنه لما مرض هذا الأخير ، أرسل إليه صلاح الدين طبيبه الخاص ليعالجه ويحمل إليه الفواكه<sup>77</sup> ، لأنه كان يدرك أن القيم الأخلاقية التي يؤمن بها تفرض عليه هذا الموقف الإنساني .



قصة أخرى لا تقل عظمة عن الموقف الأول، وهي أنه لما تمكن السلطان العثماني من فتح القسطنطينية ودخل إلى كنيسة آيا صوفيا حيث لجأ إليها رجال الدين المسيحيين فهذا من روعهم وأمّتهم على أنفسهم وعلى أموالهم وعلى كنائسهم بل تعهد بحمايتهم ، فانتخبوا بطيريكهم وهو جيناديوس، وتأكيدا على عهد الأمان أهدى إليه فرسا جميلا ، وأوكل أمر حمايته إلى حرس خاص من جنود الإنكشارية<sup>78</sup> ، ولا نعتقد أن أحدا من القادة العسكريين المسيحيين قد سمحت له أخلاقه بأن يقف مثل هذه المواقف مع المسلمين لما كانوا هم المنتصرين من قبل ومن بعد .

كانت الأندلس نموذجا للتسامح الديني ، وقد عبرت بعض المواقف بين المسلمين والنصارى عن تجسيد هذه القيمة الأخلاقية الإنسانية، ففي عهد المرابطين حدث أن مجموعة من نصارى غرناطة ، وكانوا يسمون " معاهدة غرناطة " ، تقدمت بشكوى إلى علي بن يوسف بن تاشفين لظلم لحقهم من قبل عامله على المدينة يدعى عمر بن يناله ، فجمعهم به في مجلس ثم أنصفهم<sup>79</sup> ، ومما يروى عن مجالس القضاء في حضرة القاضي ابن رشد ( ت سنة 520هـ) أنه أنصف نصرايا في قضية جمعته مع مسلم<sup>80</sup> ، ورغم ما تشيعه كتابات المستشرقين عن تعصب المرابطين إلا أن التمعن في الحقائق التاريخية يثبت عكس ذلك لأن كثيرا من النصارى تمتعوا بنفوذ إداري واقتصادي في الدولة المرابطية على عهد علي بن يوسف بن تاشفين<sup>81</sup> ، وهذا دليل على أن مبدأ التسامح كان هو الأصل في التعامل مع المخالفين في العقيدة .

#### الخاتمة :

لا يختلف اثنان في أن أهمية الأخلاق تظهر في استقامة المجتمع على الفضيلة حينما يتمسك بالقيم الأخلاقية ويفعلها في حياته اليومية ويحمل الفرد على الالتزام بها والخضوع للضوابط الاجتماعية ، وقد التزمت المجتمعات الإسلامية في العصر الوسيط إلى حد ما بمجموعة من القيم الأخلاقية ، والتي هي في الحقيقة منظومة سلوكية أخلاقية مستمدة من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة ، وحتى يضبط سلوك المجتمع بما يحقق استقامته وأمنه اجتهد فقهاء المسلمين وعلماءهم في حمل الناس على التحلي بالأخلاق الحميدة سواء بالوعظ أو الإرشاد أو النصيح في تلك الدروس والخطب التي كانت تقام في المساجد ، ومقاومة أي انحراف عن هذه الأخلاق والآداب العامة ، ومن جهتها أقامت الدول الإسلامية نظما تراقب بموجبها أخلاق الأفراد والمجتمعات، لا سيما تلك المتعلقة بمعاملات البيع والشراء، وهو ما اصطلح عليه نظام الحسبة الذي يراقب الأسواق ويضبط أيضا الآداب العامة ، وبقدر ما كانت هذه الدول قوية كان الالتزام بهذه الاخلاق متفشيا بين الناس ، وبقدر ضعفها كان يسوء سلوك بعض الناس



فيصير مظهرًا يسيء للعصر في حد ذاته مثلما حدث في فترات الضعف والفتن التي كانت تصيب الأندلس .

وكان للأخلاق في المجتمعات الإسلامية في العصر الوسيط بعد إنساني من خلال معاملة المسلمين لغيرهم من الأمم في السلم كما في الحرب ، وهذا ما جعل الكثير من الشعوب تعجب بأخلاقهم وتعتنق الإسلام ، فقد كان للتاجر المسلم حظ كبير في هذا الإعجاب من حيث كان يلتزم في معاملاته التجارية بالنزاهة والأمانة والصدق خاصة في السودان الغربي وجنوب شرق آسيا .

ومن هنا نخلص بالقول: إنّ للأخلاق مكانة كبيرة في المنظومة الاجتماعية للحضارة العربية الإسلامية وقد شكلت ثقافة الفرد المسلم المتخلق ، مارسها امتثالاً لهدي القرآن الكريم والسنة النبوية ، وهذا هو الأصل وليس حالة استثنائية ظرفية ، وحتى إذا ما كان قصور في الالتزام بها كان يعد ذلك خللاً لا يعبر إلا عن فئة معينة تلاقي مقاومة ونكراناً من قبل المجتمع، وما حضور الدولة إلا لمعالجة هذا الخلل .

#### الهوامش :

1. ابن منظور : لسان العرب ، المجلد الثاني ، تحقيق عبد الله علي الكبير وآخرون ، ط1 ، دار المعارف ، القاهرة ، (د.ت) ص 1245 .
2. محمد عبد الرحمن مرحبا : المرجع في تاريخ الأخلاق ط1 ، جروس برس، طرابلس لبنان ، 1988 ، ص 31 .
3. محمد علي التهانوي : موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، الجزء الأول ، تقديم رفيق العجم ، تحقيق علي دحروج ، ترجمه عن الفارسية عبد الله الخالدي ، ص 762 .
4. مجمع اللغة العربية : المعجم الوسيط، ط4 ، مكتبة الشروق الدولية ، القاهرة ، 2004 ، ص 252 .
5. كايد قرعوش وآخرون : الأخلاق في الإسلام، ط 2 ، دار المناهج للنشر والتوزيع ، الأردن ، 2002 ، ص 17 .
6. المرجع نفسه ، ص 26 .
7. البذاءة : الكلام الفاحش ، يقال بدأه أي رأى منه حالا كرهها ، وذمه لقبح قوله ، ينظر الفيروز أبادي : القاموس المحيط إشراف نعيم العرقسوسي ، ط 8 ، مؤسسة الرسالة لطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، لبنان ، 2005 ، ص 34 .
8. كايد قرعوش وآخرون : المرجع السابق ، ص 52 .
9. موزة أحمد راشد العبا: البعد الأخلاقي للفكر السياسي الإسلامي عند الفارابي والماوردي وابن تيمية ، دراسة تحليلية نقدية في فلسفة السياسة (رسالة ماجستير)، جامعة الإسكندرية ، 2000 ، ص 62 .
10. المرجع نفسه ، ص 67 .
11. سورة النحل الآية 90
12. سورة القلم ، الآية 4 .
13. سورة الأحزاب ، الآية 13 .



14. ابن رجب البغدادي : مختصر جامع العلوم والحكم ، اختصره أحمد بن عثمان المزيد ، ط1 ، مدار الوطن للنشر، الرياض ، المملكة العربية السعودية ، 1429هـ، ص 112 ، بشار عواد معروف وآخرون : المسند الجامع المجلد 20، ط1 ، دار الجيل ، بيروت ، الشركة المتحدة ، الكويت ، 1993 ، ص 300.
15. البيهقي : شعب الإيمان الجزء 6 ، تحقيق أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول ، منشورات محمد علي بيضون ، ط1 ، 2000 ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ص 224.
- 16 . ناصر الدين الألباني: سلسلة الأحاديث الصحيحة، المجلد الثاني، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع ، الرياض، المملكة العربية السعودية، 1415، 1995، ص 421.
17. الماوردي : أدب الدنيا والدين ، شرح وتعليق محمد كريم راجح ، ط 4 ، دار اقرأ ، بيروت ، لبنان ، 1985 ، ص 242.
18. مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري : صحيح مسلم ، ط 1 ، دار طيبة للنشر والتوزيع ، المملكة العربية السعودية ، 2006 ، ص 1041.
19. سورة النور، الآية 58.
20. كايد قرعوش وآخرون : الأخلاق في الإسلام ، ط 2 ، دار المناهج للنشر والتوزيع ، الأردن ، 2002 ، ص 28.
21. محمد الغزالي : خلق المسلم ، ط 1 ، دار الريان للتراث ، القاهرة ، 1987 ، ص 34،
22. كايد قرعوش وآخرون : المرجع السابق ، ص 56.
23. أبو الفرج بن الجوزي : آداب الحسن البصري ، تحقيق سليمان الحرش ط 1 ، دار الصديق للطباعة والنشر ، بيروت ، لبنان ، 2005 ، ص 36، 37، 38.
24. سورة الإسراء ، الآية 34.
25. عبد الله سعدون الشمري : خيانة الأمانة في تاريخ الحضارة الإسلامية (دراسة تاريخية قانونية) ، 2010 ، ص 90.
26. الطبري : تاريخ الرسل والملوكج 1 ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط 2 ، دار المعارف ، القاهرة ، مصر ، (د.ت) ، ص 8.
27. كايد قرعوش : المرجع السابق ، ص 270.
28. الماوردي: أدب الدنيا والدين ، ط 1 ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، 1987 ، ص 212.
29. سورة لقمان ، الآية 13.
30. حسين فؤاد طلبة : من أخلاق الخلفاء الراشدين ، دراسات في الإسلام . إصدارات المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، العدد 194 ، القاهرة ، 1977 ، ص 56.
31. علي محمد محمد الصلابي : فصل الخطاب في سيرة ابن الخطاب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، ط 1 ، مكتبة الصحابة ، الشارقة ، الإمارات العربية المتحدة ، مكتبة التابعين ، القاهرة ، مصر ، 2006 ، ص 113.
32. محمد مصطفى هدارة : المأمون الخليفة العالم ، الدار المصرية للتأليف والترجمة الإسكندرية (د.ت)، ص 152.
33. البيهقي : المصدر السابق ، الجزء السادس ، ص 74.
34. عيسى بن الذيب : المغرب والأندلس في عصر المرابطين دراسة اجتماعية واقتصادية (رسالة دكتوراه) ، جامعة الجزائر ، 2009 ، ص 193.



- 35- حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي الجزء الثالث، ط14 ، دار الجيل ، بيروت ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، 1998 ص 449.
- 36- إبراهيم أيوب : التاريخ العباسي السياسي والحضاري ، ط1 ، الشركة العالمية للكتاب، بيروت ، لبنان ، 1989 ص 258.
- 37- ابن رجب البغدادي : المصدر السابق ، ص 36 ، مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري : صحيح مسلم ، ص 44.
- 38- الشيخ زهير البكي : موسوعة الخلفاء، ط1 ، دار الفكر العربي ، بيروت ، 1994، ص 34.
- 39- عبد الرحمن الشرقاوي : الفاروق عمر بن الخطاب ، ط1 ، مركز الأهرام للترجمة والنشر، القاهرة ، 1987 ، ص 65.
- 40- ديككجة تصغير لدكوجة ، وهي قارورة صغيرة المالكي : رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية وزهادهم ونساكلهم وسير من من اخبارهم وفضائلهم وواصفهم الجزء الاول ، تحقيق بشير بكوش ، ومراجعة محمد العروسي المطوي ، ط2 ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، لبنان ، 1994 ، نقلا عن المحقق ، ص 346.
- 41- المالكي : المصدر السابق ج 1 ، ص 289 ، الدباغ : معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان الجزء الثاني ، تحقيق محمد ماضور ، ومحمد الأحمد أبو النور ، مكتبة الخانجي ، مصر ، المكتبة العتيقة تونس 1972 ، ص 60 ، 61 ، ابن عذاري : البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ج 1 ، تحقيق ومراجعة ج. س. كولان و ليفي بروفينسال ، ط3 ، دار الثقافة ، بيروت ، لبنان ، 1983 ، ص 108.
- 42- تاج الدين السبكي : طبقات الشافعي ج 8 ، تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو محمود محمد الطناحي ، دار إحياء الكتب العربية (د.ت)، ص 212، 213، أيمن شاهين سلام ، المدارس الإسلامية في مصر في العصر الأيوبي ودورها في نشر المذهب السني ، (رسالة دكتوراه)، جامعة طانطا ، مصر ، 1999 ، ص 191 .
- 43- محمد فاروق النيهان : " اهتمام العلماء المسلمين بالتربية النفسانية " مجلة أفاق الثقافة والتراث، العدد 1 ، دبي ، 1993، ص 11.
- 44- علي حسني الخربوطلي : القاهرة ، الحضارة العربية الإسلامية، ط 2 ، مكتبة الخانجي ، 1994، ص 248، 249.
- 45- كايد قرعوش وآخرون : المرجع السابق ، ص 68.
- 46-سورة آل عمران ، الآية 110.
- 47- مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري : صحيح مسلم ، ص 42.
- 48- جودت عبد الكريم يوسف : الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في المغرب الأوسط خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين (9-10م)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر ، ص 191.
- 49- ابن خلدون : المقدمة ، ضبط خليل شحادة ، مراجعة سهيل زكار ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، لبنان ، 2001 ، ص 281.
- 50- عبد العزيز بن محمد بن مرشد : نظام الحسبة في الإسلام دراسة مقارنة (رسالة ماجستير)، جامعة محمد بن سعود الإسلامية ، المملكة العربية السعودية ، 1393 هـ ، ص 80.



- 51- عبد الرحمن بن نصر الشيزري : نهاية الرتبة في طلب الحسبة ، ، نشر السيد الباز العربي ، إشراف محمد مصطفى زيادة ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ، 1946، ص 9.
- 52- موسى لقبال : المغرب الإسلامي منذ بناء معسكر القرن حتى انتهاء ثورات الخوارج ، ط2 ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 1981 ص 181.
- 53- عبد العزيز بن محمد بن مرشد : المرجع السابق ، ص 118.
- 54- عبد الرحمن بن نصر الشيزري: المصدر السابق ، ص 38. عبد العزيز بن محمد بن مرشد، ص 119
55. المقري : نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب ج 1، تحقيق إحسان عباس دار صادر ، بيروت لبنان 1988، ص 219. ج . ف. ب هوبكنز : النظم الإسلامية في المغرب في القرون الوسطى ، ترجمة أمين توفيق الطيبي ، ط 2 ، شركة النشر والتوزيع المدارس ، الدار البيضاء ، 1999، ص 176.
- 56- عبد الرحمن بن نصر الشيزري: المصدر السابق ص 264 ، عبد العزيز بن محمد بن مرشد: المرجع السابق ، ص 126.
- 57- شمس الدين الدمشقي : نقد الطالب لزغل المناصب ، تحقيق محمد أحمد دهمان و خاد محمد دهمان، مراجعة نزار أباضية، ط1 ، دار الفكر المعاصر ، بيروت ، بنان، 1992 ، ص 180)
58. سليم عمار : (أدب الطب في التراث العربي الإسلامي) ، أفق الثقافة والتراث، العدد 2 ، دبي، 1993 ، ص 15 ، 16 ، 17 ، 18.
- 59- محمد ناصر الدين الألباني : سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقها وفوائدها ج 1 ، ، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع ، الرياض ، المملكة العربية السعودية ، (د.ت) ، ص 62
- 60- المرجع نفسه ، ص 65.
- 61- أحمد بن حنبل : مسند احمد بن حنبل، بيت الأفكار الدولية للنشر والتوزيع ، الرياض ، المملكة العربية السعودية ، 1998، ص 1427.
- 62- أبو عبد الله بن سعيد العقباني : تحفة الناظر وغنية الذاكر في حفظ الشعائر وتغيير المناكر ، تحقيق علي الشرنوفي ، ص 69.
- 63- صلاح الدين الصفدي : الوافي بالوفيات الجزء 23، تحقيق أحمد الأرناؤوط ، تركي مصطفى ، ط 1 ، دار إحياء التراث العربي، بيروت ، لبنان ، ص 115 .
- 64- مصطفى السباعي : من روائع حضارتنا ، دار الوراق وط1 ، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة ، القاهرة ، مصر 1998 ، ص 89.
- 65- عبد العزيز بن محمد بن مرشد: المرجع السابق ، ص 20.
- 66- محمد ناصر الدين الألباني: صحيح الجامع الصغير مجلد 1، ط 3 ، المكتب الإسلامي ، دمشق ، بيروت ، 1988، ص 561.
- 67- أبو عبد الله بن سعيد العقباني : المصدر السابق ، ص 66.
68. موسى لقبال الحسبة المذهبية في المغرب العربي ( نشأتها وتطورها )، ط1، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 1971، ص 50.
69. المرجع نفسه ، ص 55.



- 70- محمد زنيبر وآخرون : تجارة القوافل ودورها الحضاري حتى نهاية القرن التاسع عشر ، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، معهد البحوث والدراسات العربية ، بغداد ، 1984 ، ص 95
71. محمود محمد أحمد قمر : دور البحريين في الملاحة والتجارة، ط1، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة ، مصر ، 1997، ص 73، 78.
- 72- شوقي عبد القوي عثمان : (تجارة المحيط الهندي في عصر السيادة الإسلامية)، مجلة عالم المعرفة ، العدد 151، الكويت ، 1990، ص 181
- 73.-سورة الممتحنة ، الآية 8 .
- 74- محمد ناصر الدين الألباني : سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها ج 1 ، ص 807.
- 75- الونشريسي: : المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي أهل إفريقية والأندلس والمغرب ، الجزء 11 ، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ، المملكة المغربية ، 1981، ص 300، 301.
- 76- محفوظ علي عزام : الأخلاق في الإسلام بين النظرية والتطبيق، ط1 ، دار الهداية للطباعة والنشر والتوزيع ، مصر ، 1986 ، ص 114.
- 77.مصطفى السباعي : المرجع السابق ، ص 81
- 78.المرجع نفسه ، ص 81.
- 79.ابن عذاري :المصدر السابق ج 4 ، تحقيق إحسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت، لبنان، 1982 ، ص 77.
80. إبراهيم القادري بوتشيش : (المرابطون وسياسة التسامح مع نصارى الأندلس) ، ندوة الأندلس قرون من التقلبات، ط1 ، مكتبة الملك عبد العزيز العامة ، الرياض ، المملكة السعودية، 1996 ، ص 235.
- 81-المرجع نفسه ، ص 237.